مات الحكم فى سنة ٨٢٢ م / ٢٠٧ هـ. بعد أن قضى فى الحكم ستًّا وعشرين سنة، ترك وراءها الملك هادئًا بعض الهدوء لابنه عبد الرحمن الأوسط، فقد أخضع المتسلمون فى قرطبة بالسيف ثم نفوا، وتلقى المتزمتون من الفقهاء درسًا لا ينسى، ولم يبق إلا إطفاء الاضطراب الدائم على التخوم المسيحية، وورث عبد الرحمن الأوسط ميل أبيه إلى التمتع باللذات والاستنامة إلى النعيم، ولكنه لم يرث منه قوة الخلق التى تحوط هذا التمتع وتلك الاستنامة من أن تكون ضعفًا[1]، فقد أغرق فى اللهو، وحول قرطبة إلى بغداد ثانية، وأخذ يحاكى إسراف هارون الرشيد الذى كان قد انتقل من عهد قريب من عالم الدنيا، ومن مشاهد لهوه ومسراته، إلى عالم نأمل أن يكون خيرًا له وأبقى[2].

بنى عبد الرحمن القصور، وغرس الحدائق، وجمل مدينته بالمساجد والقناطر، وأولع بالشعر كغيره من ملوك الإسلام المثقفين،

---

(١) فى أخبار مجموعة: وكان الأمير الحكم شجاعًا حازمًا مظفرًا فى حروبه، أطفأ نيران الفتن بالأندلس وكسر قرن النفاق، ثم روى أخبارًا تدل على شدته وحزمه فى توطيد دعائم الملك.

(٢) مات الرشيد بطوس سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م.

وكان يرى أن شعره لا يقل فى منزلته عن شعر المجيدين، وإن زعم بعض المؤرخين أن كثيرًا منه كان من أقلام غيره، وكان الأمير نقى الذوق، لين الخلق، سهل القياد، ملك زمامه طول حياته أربعة نالوا عنده الحظوة الكاملة، وهم: مغن، وفقيه، وامرأة، وعبد أسود، وكان أشد هؤلاء تسلطًا عليه الفقيه يحيى بن يحيى الليثى، وهو هو نفسه الذى أثار الفقهاء على أبيه الحكم، ولكنه أصبح اليوم صاحب التأثير المطلق والكلمة التى لا ترد لدى الأمير الجديد، وكانت للأميرة «طروب» وعبده «نص» سلطة نافذة فى شئون الملك، أما «زرياب»[1] المغنى فإنه استغل حظوته عند عبد الرحمن فى إنهاض الفنون والثقافة، وأبى أن يزج بنفسه فى أمور الدولة التى قد تكون سيئة المغبة.

كان فارسيًّا، وكان تلميذًا لإسحاق الموصلى المغنى المقدم ببغداد، فحدث ذات يوم لسوء طالعه، أن فاق أستاذه فى غناء صوت بحضرة الرشيد، فحنِق عليه إسحاق وخيّره بين الموت والنفى، فاختار النفى ورحل إلى الأندلس، فأحسن عبد الرحمن استقباله وبالغ فى إكرامه والإغداق عليه، وقرر له راتبًا ضخمًا، ووهب له الدور، وأدر عليه الأرزاق، ومنحه الكثير من الميزات والهدايا، حتى بلغ الذروة فى الجاه والثروة، وزاد إعجاب الملك بمواهبه حتى إنه كان

(١) دخل الأندلس سنة ٢٠٦ هـ.

يجلسه إلى جانبه ويؤاكله وينصت ساعات إلى غنائه وإلى ما يقص عليه من أخبار الأولين، ومن الحكم والأمثال التى وعتها حافظته من قراءاته الكثيرة.

وكان يحفظ فى الغناء أكثر من ألف صوت، ويقول إن الجن تلقنه إياها، وهو الذى أضاف إلى العود وترًا خامسًا، وكان فى ضربه العود منقطع النظير، يوشك من يستمع لضربه مرة أن يأبى الإنصات إلى سواه، وكانت له طريقة غريبة مع المبتدئين من تلاميذه، فكان يأمر من يريد تعلم الغناء أن يجلس ويغنى بأعلى صوته، فإن كان ضعيف الصوت أمره أن يعقد حزامًا حول خصره ليزيد فى قوة صوته، فإذا كان ألص الأضراس لا يقدر أن يفتح فاه واسعًا، أو كانت عادته أن يزم أسنانه عند النطق، أمره أن يضع فى فمه قطعة خشب عدة ليالٍ حتى ينفرج فكاه، فإن استطاع بعد ذلك أن يصيح بكلمة: آه. بأندى ما يكون من الصوت وأن يستمر صوته بمثابة واحدة فى العلو، قبل أن يعلمه ويمرنه، وإلا أمره أن يذهب إلى حال سبيله. وبذ زرياب الناس جميعًا فى تهذيبه وفكاهته وحسن محاضرته، فأصبح أشهر رجل بالأندلس، وتحكم فى الأزياء والعادات كما كان يتحكم فيها «بيترونيس»[1] و «برومل» الوسيم[2]؛ من ذلك أنه أبطل

---

(١) كاتب قصصى رومانى اشتهرت كتابته بالتبكيت والسخرية المستورة، وقد أعجب به نيرون ووصله بحاشيته.

(٢) هو جورج براين، إنجليزى اشتهر بابتداع الأزياء ولد سنة ١٧٧٨ ومات سنة ١٨٤٠.

عادة إعفاء الشعر وإسداله مفروقًا إلى الحاجبين والصدغين، وأدخل بالأندلس بقلة الهليون (أسباراجس) وزاد فى الأطعمة لونًا كانوا يسمونه بالنقايا، وهو يصنع بماء الكزبرة مع السنبوسق والكباب، ولونًا آخر سموه تقلية زرياب، يطبخ فيه الدجاج أو الأرانب فى ماء كثرت به التوابل والأفاويه، وأبدل بالأكواب المعدنية الأكواب الزجاجية، وابتدع النوم على أسرة من الجلد، وابتكر أن تكون أسمطة الطعام من جلد كذلك، إلى كثير من وسائل الرفاهية والنعيم، ثم إنه أرشد الناس إلى التأنق فى تغيير الملابس بحيث ينزل غلظها على التدريج، من أصفق الملابس فى زمهرير الشتاء، إلى أخفها فى هجير الصيف، وكانوا يغيرون ملابسهم مرة عند الشتاء وأخرى عند الصيف، وقصارى القول إن هذا الأبيقورى[1] المرح لم يبتدع شيئًا إلا رآه الأندلسيون ضروريًّا جميلًا.

وبينما كان القصر ورجاله منهمكين فى تذوق ألوان جديدة من الطعام متأنقين فى قص شعرهم، كان فريق من أهل قرطبة يفكر وينهمك فيما هو أعظم وأبعد أثرًا، لأن الخطر فى هذا الحين لم يدهم الدولة من خارج حدودها، فإن عبد الرحمن الأوسط - على علاته - لم تعوزه الشجاعة التى تدفعه إلى خوض معامع القتال، فكثيرًا ما قاد الجيوش إلى نصارى الشمال الذين كانوا بزعامة لويس

(١) نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة اليونان ومذهبه: أن خير ما فى الحياة التمتع بالحياة.

الجميل الخَلق والخُلق لا يفتأون يغيرون على الحدود، وكثيرًا ما حلق النصرحول رايته[1]، على أن هذه المناوشات لم يكن لها الآن من الشأن والخطـر ما يهز ركن الدولة الوطيد، فإن الاضطراب فى عهود الدولة الأولى لم يجىء إلا منها نفسـها، وقد جاءت الزعازع فى هذه الآونة مـن عدد قليل من النصـارى بقرطبة التهبت نفوسـهم غيرة وتعصبًا لدينهم، أمـا جمهرة النصارى بالأندلس فلم يصابوا بشـىء من هذه الغيرة العنيفة، لأنهم رأوا أنهم يعامَلون خير معاملة، وأن المسلمين قـد تركوهم أحرارًا فيما يعبدون، وأن الحكام لا يتدخلون فى شـىء من عقائدهـم، وأنهم يتجرون كما أرادوا، ويجمعـون الثروة حيثما وجدوها. وأنهم يعيشون كما يعيش إخوانهم المسلمون، فما الذى بقى لهم من أمانيهم؟ لا شـىء. اللهم إلا إذا كانوا يتطلعون إلى اسـترجاع ملكهم، وشـىء من هذا يعد الآن من المستحيلات، فقنعوا بالأمور كما هى، واجتهدوا أن يستفيدوا من سماحة حكامهم ولينهم.

كان هذا الميل عامًّا بين نصـارى الأندلس، وإن ظهر هنا وهناك روح طمـوح متحمس أغاظـه هذا الخنوع لحكم المسـلمين، وطافت بخيال أصحابه أطياف من قوتهم الماضية وعلو شـأن الكنيسة، ولم

(١) فـى أخبـار مجموعة: أنه غزا ماردة سـبعة أعوام ولاء، فلما اشـتد عليها الحصار فى العام السـابع وسمع صراخ النساء وعويل الأطفال أمر برفع الحصار عنها إبقـاء على الولدان ومن لا ذنب له، ولم ينتقل إلى محلة حتى أتته رسـلهم بطاعتهم والإلقاء إليه بأيديهم.

يستطع القساوسة أن يكبحوا جِماح بغضهم للمسلمين الذين سلبوهم عزهم وسلطانهم، وأبدلوا بالنصرانية دينًا جديدًا. ومن العجب أن تسامح المسلمين كان يزيد فى سخط النفوس المتعصبة، فلقد كان أصحاب هذه النفوس يؤثرون أن يعذبوا وأن يضطهدوا كما اضطهد القديسون من قبل، وكانوا يتشوفون إلى الاستشهاد تشوف الظمآن إلى الماء الفرات، وينقمون من المسلمين أنهم لم «يعذبوهم فى سبيل دعوتهم الحقة» حتى يضمنوا لأنفسهم الفوز فى جنات النعيم. وكان أشد ما يكره هؤلاء المتشددون المتزمتون ما شغف به العرب من التمتع بلذائذ الحياة، والإغراق فى اللهو والسرور، والعيش فى ظلال الرفه والنعيم، فكان تمتعهم بالحياة وزينتها، وحبهم للغناء والموسيقى وولوعهم بالعلوم من أكبر ما يثير بغض هؤلاء الزهاد وحقدهم، فإن حياة المؤمن الحق عندهم يجب أن تكون سوط عذاب، وصومًا متصلا، وتوبة وبكاء، وتطهيرًا بالآلام، وإماتة للجسد فى سبيل إحياء الروح. واكتفى هؤلاء أول الأمر بإظهار جانب الزهادة المسيحية والتحرج بين الأهلين، ولكن الأيام دارت دورتها ونشأ فى المسيحية جيل جديد، فإذا تحمس مفاجئ عميق الغور يأخذ مكان التهاون القديم، وإذا حمى حب الموت والاستشهاد فى سبيل المسيحية تظهر فى كل مكان.

وكان من المحزن المستدر للرحمة حقًّا أن ترى رجالا يقذفون بأرواحهم وأرواح غيرهم فى سبيل حلم كاذب، فإن هذا الانتحار

الدينى لم يكن أكثر تعقلا أو أدخل فى باب الدين، مما كان يقاسيه قساوسة «بال» الذين كانوا يقطعون أجسامهم بالسكاكين، أو مما يفعله زهاد الهنود، الذين كانوا يدخلون أظفارهم فى راحهم ثم يتركونها لتنمو فيها. وجنون الشهداء فى سبيل أشرف وأعلى من سبيل هؤلاء، لن يجعلهم أقل منهم جنونًا ... إن المسيحية لا تعلم دعاتها أن يطوحوا بحياتهم هدرًا لمحض التمتع بالتعذيب والقتل، على أن نصارى الأندلس لم يضطهدوا ولم يحل بينهم وبين شعائر دينهم حائل، ولم يكن المسلمون يجهلون المسيحية أو يحتاجون إلى من يلقنهم تعاليمها، فقد كانوا يعرفون من الكتاب المقدس أكثر مما يعرف نصارى الأندلس أنفسهم، وكانوا لا يذكرون اسم عيسى من غير أن يتبعوه بالصلاة والتسليم، لأن قدسية المسيح وإحاطة اسمه بالإجلال والتبجيل من أظهر مبادئ الإسلام، وكل ما فى الأمر أن المسلمين كانوا يؤثرون دينهم، فلم يكن للنصارى من عذر فى الظهور بمظهر المضطهدين المستذلين بعد أن ترك لهم المسلمون دينهم، وفى الحق إننا لا نجد سببًا معقولاً لتهافت النصارى على الموت ما دام المسلمون قد سمحوا لهم بإقامة شعائرهم، وأجازوا لهم أن يعظوا وأن يعلموا من غير عائق أو حائل.

ليس هناك من علة مشروعة لبحث هؤلاء عن حتفهم بظلفهم، إلا إذا أرادوا أن يتنكبوا عمدًا طريق الإنجيل، وأن ينبذوا جانبًا تعاليم المسيح الذى يقول: «أحبوا أعداءكم. اعملوا الخير لمن يبغضكم.

واستغفروا لمن يظلمونكم أو يضطهدونكم». إنهم لم يظلموا ولم يضطهدوا ولم يمس المسلمون جمهرة النصارى بسوء، نعم إن بعض العامة كان يسخر أحيانًا من القساوسة، ولكن طبقات المسلمين الأخرى لم تشترك فى شىء من هذا، مع كل هذا التسامح وهذا العطف واللين أبى هؤلاء النصارى المساكين أن يحبوا أعداءهم، وتجاوزوا جادة الصواب فى سبهم ولعنهم، وإثارة غضبهم، لا لشىء إلا لحملهم على قتلهم ليموتوا شهداء فى سبيل الدين.

ومن الأحكام المعروفة فى بلاد المسلمين: أن يعاقب من يسب النبى أو دينه بالقتل ... ثم إنه حكم شديد قاس، ولكن الدنيا شهدت من القوانين ما لا يقل عنه قسوة وشدة، فقد كان الناس يحرقون بين صيحات السرور فى إسمثفيلد وأكسفورد فى عصور تلى هذا العصر الذى نكتب فيه[1].

ليس من المسيحية أن تثير عمدًا عراكًا دينيًّا أو تسب دينًا غير دينك، وليس استشهادًا بل انتحارًا أن تتعدى مختارًا حدود شريعة يجر تعديها إلى الموت. إن الرحمة التى تثير نفوسنا لشهداء قرطبة هى بعينها الرحمة التى تخالجنا لمن أصيبوا بالخباط (الهيستريا) لأن من قتل منهم كان فى الحقيقة شهيدًا لمرض نفسى، وحال هذا تستدعى من الرحمة ما يستدعيه موت المستشهد فى سبيل الدين.

---

(١) كثر إحراق الأشخاص لمذهبهم الدينى بإنجلترا بعد دخول البروتستنتية أيام هنرى الثامن وابنه إدوارد وابنته مارى.

كان يولوجيوس الروح المثيرة لهذه الانتحارات، وهو قسيس ينتمى إلى أسرة عريقة بقرطبة، اشتهر بحماسته الدينية، فقد قضى سنوات فى الصوم والصلوات والإنابة وتعذيب النفس، حتى وصل إلى حال من الذهول دفعته فى سبيل إخلاصه لدينه إلى الجرأة والتهور، وعزف به الزهد عن الميل إلى الحياة الدنيا، فلم يفكر يومًا فى نفسه، ولم يطمح إلى مأرب دنيوى، بل كانت كل أمانيه ومقاصده أن يصب اللعنات على دين المسلمين، وأن يوقظ روح التضحية السامية بين النصارى. وأعانه على الوصول إلى غايته شاب غنى بقرطبة يدعى«الفارو» ثم عدد قليل من متحمسى القساوسة والرهبان والنساء والمسيحيين، وكان بين من أعجبوا بهذا القسيس الشاب المخلص، فتاة على غاية من الجمال تدعى«فلورا» كان أبوها مسلمًا وأمها نصرانية، فنشأتها سرًّا على النصرانية، وبقيت فلورا عدة سنين مسلمة فى ظاهر أحوالها، ولكنها فرت بعد ذلك من دار أخيها، وكان أبوها قد فارق الحياة، والتجأت إلى النصارى متأثرة بروح التضحية والتعصب التى أثارها يولوجيوس فى سامعيه، وبما سمعت من بعض فقرات فى الكتاب المقدس هاجت شعورها مثل: «إن الذى يجحدنى أمام الناس سأجحده أمام أبى فى السماء». ولما افتقدها أخوها المسلم بحث عنها فى كل مكان فلم يجد بحثه شيئًا، فاتهم القساوسة فقذف كثير منهم فى السجن لتآمرهم على اختطافها، ولما لم ترد فلورا أن يؤذى أحد فى سبيلها عادت إلى

دارها وأعلنت نصرانيتها فى صراحة وجرأة، وبذل أخوها أشد الوسائل وأعنفها لقسرها على العودة إلى الإسلام فلم يفلح، حتى إذا يئس فى النهاية ساقها إلى القاضى متهمًا إياها بالردة، ومن المقرر أن الإسلام يعد ابن المسلم مسلمًا وإن كانت أمه نصرانية، ويعاقب على الردة بالقتل، ولا يزال هذا الحكم قائمًا إلى اليوم بتركيا، وإن تغافل الحكام عن تنفيذه من أربعين سنة.

ولن ينتظر من عرب الأندلس الذين سبقوا عهد الترك بألف سنة أن يكونوا أكثر تسامحًا من الترك نحو المرتدين، ومع هذا أظهر القاضى الذى حضرت أمامه فلورا بعض الشفقة على الفتاة التعسة فلم يحكم بقتلها كما يوجب الدين، ولم يحكم بسجنها، ولكنه أمر بها فضربت ضربًا شديدًا، وطلب من أخيها أن يأخذها إلى داره ويلقنها تعاليم الإسلام، ولكنها فرت ثانية والتجأت إلى بعض أصدقائها، وهناك قابلت أول مرة يولوجيوس، الذى أكن لهذه الفتاة الجميلة البائسة المخلصة حبًّا طاهرًا وحنانًا يشبه حب الملائكة، فإن سمو نفسها وورعها وشجاعتها التى لا تغلب جعلتها قديسة فى عينيه، حتى إنه بعد ست سنوات من هذه المقابلة لم ينس ما تركته فى نفسه من الأثر حينما كتب إليها:

«لقد تفضلتِ أيتها الأخت القديسة أن ترينى عنقك وقد مزقته السياط، وقد قص الظلمة من حوله تلكِ الخصل الجميلة التى كانت تتدلى فوقه كأسلاك الذهب، فعلت ذلك لأنك عددتنى أبًا روحانيًّا،

واعتقدتِ أن نفسى كنفسك صافيةِ طاهرة، وقد وضعت يدى برفق على هذه الجروح، ووددت أن أبرئها بشفتىّ لو استطعت...

وحينما فارقتك كنت كمن يمشى فى حلم، واستمرت زفراتى وتأوهاتى».

نقلت فلورا مع أخت لها تماثلها فى الرأى والتعصب، إلى مكان خفى أمين، فلم يرها يولوجيوس فترة من الزمن.

وفى هذه الأثناء كان تعصب النصارى بقرطبة قد نضجت ثمرته. فقد أغرم قسيس مختبل هو برفكيوس بسب الإسلام، فأخذ وشنق فى عيد الفطر حينما كان المسلمون رجالا ونساء يحتفلون بهذا اليوم وينعمون فيه بكل ما يبعث الابتهاج والسرور، وقد زاد شنق هذا القسيس فى مرح الحشود التى زحمت الشوارع أو ركبت القوارب فى النهر أو لعبت بالسهل الفسيح خارج المدينة.

مات هذا القسيس المسكين شجاعًا، مرسلا آخر أنفاسه بسب النبى ودينه، محاطًا بزحام عظيم من المسلمين الساخرين الشامتين، وجاء أسقف قرطبة ووراءه جيش من القساوسة والمخلصين، فحمل جثته ودفنها مع آثار القديس إسيسكلوس من شهداء ديوكلتيان، وكان برفكيوس واعظا بكنيسته، ثم خلع عليه لقب القديس، وفى مساء ذلك اليوم غرق مسلمان فعد ذلك غضبًا من الله لقتل برفكيوس، ومات نصرالعبد الأسود فى أثناء السنة وكان مشرفًا على تنفيذ الإعدام، فزعم المسيحيون فى شماتة بأن برفكيوس هو الذى

قضى عليه، وأن موته كان انتقامًا آخر. وطلب بعد ذلك بقليل راهب يدعى إسحاق مقابلة القاضى بحجة أنه يريد الدخول فى الإسلام فأذن له، وما كاد القاضى ينتهى من شرح مبادئ الإسلام وأصوله حتى انبرى له ذلك الذى جاء ليسلم، وأخذ يصب على الإسلام أقذر الشتائم والسباب، فلم يكن عجيبًا من القاضى- وقد أخذته الدهشة - أن صفعه على قفاه ثم قال: أتعلم أن ديننا يأمر بقتل كل من يجرؤ على أن يقول ما قلت؟ فأجاب الراهب: نعم أعلم ذلك، فاحكم على بالقتل فإننى أتشوق إليه، لأننى أعلم أن الله يقول: «ما أسعد الذين يضطهدون فى سبيل الحق، إن لهؤلاء مملكة السماء». حزن القاضى للرجل، وألح على الأمير أن يتجاهل ذنبه فلم يفلح، وقطع رأس إسحاق فأصبح قديسًا. وكان المسيحيون عامة ينسبون إليه كثيرًا من الخوارق، ويدعون أن هذه الخوارق لم تظهر منذ طفولته فحسب، بل ظهرت من قبل أن يولد...

ثم ظهر بعد ذلك سانشو (شانجة)، أحد حراس الأمير، وكان تلميذًا ليولوجيوس فسب محمدًا وفقد رأسه. وفى يوم الأحد التالى أسرع ستة من الرهبان إلى مجلس القاضى وصاحوا: إن رأينا كرأى أخوينا القديسين إسحاق وسانشو فاقتلنا. ثم أخذوا يسبون محمدًا ويصرخون بالقاضى: انتقم لسيدك محمد، وعاملنا بكل ما لديك من وحشية، فقطعت رءوسهم. وتقدم يوم القصاص من هؤلاء ثلاثة من القساوسة أو الرهبان أصيبوا بحمى الانتحار فقدموا أعناقهم إلى

الجلاد مغتبطين، وهكذا قتل أحد عشر رجلا فى أقل من شهرين فى صيف سنة ٨٥١ م / ٢٣٧ هـ.

أخذت الدهشة جمهور المسيحيين من تعصب إخوانهم الطائش، إذ لم يكن يعرف عن الإسبانيين شيء من هذا التحمس حتى هذا الحين، فقد مستهم المسيحية مسًّا خفيفًا، حتى إن الكثير منهم هرعوا إلى الإسلام راغبين راضين، فامتزج الدينان وعاش الفريقان فى خلطة وصداقة وحسن معاملة، وأخذ النصارى يبغضون لغتهم اللاتينية القديمة ويصدفون عن آدابها، فتعلموا العربية واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا بها كما يكتب العرب أنفسهم، وقد ندد يولوجيوس نفسه بهذه الحال إذ يقول: «إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربى وقصصه، ويهجرون الكتاب المقدس وآثار القديسين، ومما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشئ لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، وينشئ لها الخزائن، ويراها جديرة بالإعجاب، فى حين أنه يبخل بنظرة إلى كتاب مسيحى»، ثم يقول «لقد نسى النصارى لغتهم، ومن العسير أن نجد واحدًا منهم فى كل ألف يكتب حرفًا لاتينيًّا كتابة سائغة، وهم مع هذا يستطيعون أن ينظموا شعرًا عربيًّا رائعًا». وفى الحق إن النصارى وجدوا فى قصص العربية وشعرها متعة ألهتهم عما كتبه آباء الكنيسة، وكانوا يتدرجون إلى الاستعراب ويقتربون من العرب شيئًا فشيئًا، حتى أصبحوا أعظم مدنية وأتم

صقلا وأكثر تهاونًا بالفروق الدينية، وكانوا يشكرون للعرب رفقهم بهم وحسن معاملتهم إياهم إلى أن صدمهم العداء الفجائى الذى أظهره إخوانهم المتعصبون، فحاولوا جهدهم صد تلك العاصفة الهوجاء قبل هبوبها، وأخذوا يصارحون إخوانهم بعقم ما يعملون، ويجادلونهم ويذكرونهم بسماحة المسلمين ولينهم، وينبهونهم على ما جاء فى الكتاب المقدس من الدعوة إلى الرفق والسلام، فإن من آياته: «لا يدخل الشتامون العيابون مملكة السماء» ويحدثونهم بأن المسلمين لا يأبهون لمن يقتل من المسيحيين لأنهم يرون أن دينهم لو كان حقًّا لانتقم الله لشهدائه.

كان هذا رأى جمهور المسيحيين الذين لم تسيطر عليهم وساوس التعصب، والذين لم يروا فى الدنيا خيرًا من أن يحسنوا إلى جيرانهم وأن يؤدوا صلواتهم فى هدوء وسلام، وهؤلاء حاولوا جهد المستميت أن يردوا من جماح المتعصبين فلم يفلحوا، وخافوا مغبة الأمر، لأنهم أدركوا أن استمرار الطعن فى الإسلام وما يتبعه من عقاب متوال، سيؤدى حتما إلى اضطهاد حقيقى للمسيحيين، ولكن يولوجيوس الذى نصب نفسه للرد على كل ما اعترضوا به عليه مستدلين بنصوص الكتاب المقدس، وكتاب حياة القديسين - كان يتمنى هذه العاقبة، وكان أمثاله من المتعصبين لا يرغبون فى شىء رغبتهم فى انتشار اضطهاد المسلمين للنصارى وتأجج ناره، غير أن سلطات الكنيسة أبت أن تسمح باستمرار روح العصيان من غير ردع،

وكانـت فى ذلك متأثرة بالفريق المعتدل وبسـماحة الحكم العربى، فاجتمع الأساقفة فى مجلس يرأسه أسقف إشبيلية، وأصدروا قرارًا خطـيرًا، لم يوجهوا فيه نقدًا لحوادث الاستشـهاد السـابقة، لأن الكنيسة دونت أسماء أصحابها فى سجل الشهداء، ولكنهم أمروا أن يمنع كل شـغب من هذا القبيل، وذاع هذا القرار بين الناس، وكان من أثره أن ألقى المتعصبون فى غيابات السجون.

وفى هـذا الحين، التقـى يولوجيوس بفلورا مـرة ثانية: ذلك أنها بينما كانت تصلى فى الكنيسـة بقنوت وخشـية، إذ رأت إلى جانبها زميلـة متعصبة: هى مارى أخت إسـحاق الراهب، الذى لقى حتفه فى طليعة الشـهداء، فأخبرتها مارى بشدة رغبتها فى اللحاق بأخيها بمملكة السـماء، وعزمت فلورا أن ترافقها فى هذه الرحلـة، فذهبتا إلى القاضى، وبذلتا ما فى وسـعهما لإثارة غضبه بالإكثار من سب محمد ودينه، وكانتا فتاتين جميلتين، تدينان فى ورع وإخلاص بالدين الذى يدعو إلى «السلام فى الأرض وبذل الخير والمحبـة للناس» وقد وقفتا أمام القاضى وشـفاههما تقذف بالحقد والسـباب ونعت دينـه بأنه من عمل الشـيطان، ولكنهما لم تثيرا غضب هذا القاضى الكريم بالسـهولة التى ظنتاها، فقد مجت نفسه هذا الجنون الخباطى، وكثيرًا ما تصامم حينما كان الناس يحاولون قذف أنفسهم إلى الموت، فأشفق على هاتين الفتاتين، وتمنى لو كانتا أقل طيشًـا وجنونًا، وحاول أن يقنعهما بالرجوع عن رأيهما، أو أن

يتجاهل إقذاعهما ولكن الفتاتين أصرتا على التمسك بما زعمتاه من بطولة وتضحية، فاضطر إلى إلقائهما فى السجن.

وقد أثرت مدة السجن الطويلة فى الفتاتين أشد تأثير، فأوشكت أن تخفف من غلوائهما وأن تزحزحهما عن حماستهما القاتلة، لولا اتصالهما بيولوجيوس الذى قواهما وقضى عليهما.

ولقد كان عمله هذا أشق عمل فى الحياة، ذلك أنه كان يستحث إلى خشبة الجلاد المرأة التى أحبها وسكنت سويداء قلبه، لأنه - على الرغم من كل شعور طبيعى أو إنسانى - راض نفسه على إثارة التعصب والنفخ فى نار الاستشهاد، وانغمس فى هذا العمل المضنى المؤلم دون أن يهن أو يضعف لاعتقاده أنه السبيل الحق لنصرة الدين، حتى إنه كتب مقالا رائعًا لفلورا يقنعها فيه بجلال الاستشهاد وجماله الروحى، وما كانت فلورا فى حاجة إلى إقناع أو تحريض، واستمر ليله ونهاره يقرأ ويكتب ليطرد من قلبه الشعور بالرحمة والحب اللذين كانا يهددان عزيمته بالتردد والخور، ولكنها كانت أثبت من الجبال.

وثبتت فلورا ومارى على عزمهما فلم تتحولا عنه على الرغم مما بذله القاضى من جهود لإنقاذهما، فحكم عليهما بالموت، وقبل أن يحكم عليهما قابل يولوجيوس فلورا آخر مرة، وقد كتب عن هذا اللقاء فخورًا بهذا الفوز الروحى: «لقد تصورتها ملكًا كريمًا، وقد أحاطت بها هالة قدسية وأشع وجهها بالسعادة والفوز، كأنما كانت

تحس بمباهج جنـات النعيم، ولقد حاولت حينما سمعت الكلمات التى تحدرت من فمها العذب أن أثبت إيمانها، فأريتها التاج الذى أعد لاستشـهادها، لقد عبدتها وجثوت أمام هذا الملك السماوى، ثم رجوتها أن تذكرنى فى صلواتها، وحينما بعث حديثها فى نفسـى قوة واعتزامًا عدت إلى سجنى الموحش».

قتلت فلورا وصاحبتها فى الرابع والعشرين من نوفمبر سنة ٨٥١ م / ٢٣٧ هـ وكتـب يولوجيوس بعد موتها قصيدة تفيض بالسـرور والبهجة تمجيدًا لهذا الحادث الذى ظنه انتصارًا عظيما للكنيسة.

بعد ذلك بقليل أطلق سـراح يولوجيوس وغيره من القساوسـة، وفى السـنة التالية مات عبد الرحمن الأوسـط وخلفه ابنه محمد، وكان قاسـيًا جامد العاطفـة موصوفًا بالأثرة، مصـادرًا لوزرائه، فأبغضـه الناس عامة، ونعوا عليه جشـعه وفسـولته، ولم يحبه إلا الفقهاء لأنهم توسموا أنه سـيبطش بالمسـيحيين الذين سخروا من المسـلمين ومـن دينهم، وكان هـذا التـوسـم صادقًا، فقد هدمت الكنائـس، واتخذت وسـائل عنيفـة للاضطهاد، فأسـلم كثير من النصـارى بعد الأفواج التى دخلت فى الإسـلام حينما قرر مجلس الأساقفة استنكاره حوادث الانتحار الذى دعى استشهادًا.

واغتبـط يولوجيـوس والفارو بهذه الشـدة، وزعمـا أنها دعت كثيرًا من المسـلمين إلى العودة إلى المسيحية، وتغيرت تلك السياسة الحكيمة الشفيقة، سياسة عبد الرحمن الأوسط ووزرائه التى كانت

تغمض العين عن نزوة المسيحيين وطيشهم، وتلتها سياسة قاسية عسوف، فلم يكن عجيبًا أن يفر المسيحيون بأنفسهم إلى الإسلام.

ولكن كل هذا لم يطفئ جذوة المتعصبين، فقد زادها الاضطهاد اشتعالا، وامتد شررها إلى خارج قرطبة، ورسمت طليطلة يولوجيوس أسقفًا لها، وحينما أبى الأمير الموافقة على هذا القرار، ترك مكان الأسقفية خاليًا حتى تسنح الفرصة ليولوجيوس بشغله.

وقدم على قرطبة راهبان فرنسيان ليستجديا شيئًا من آثار الشهداء، ثم عادا بحقيبة مملوءة بعظامهم لتعرض فى باريس، ولكن عاصفة أخرى كانت موشكة الهبوب على المتعصبين، فقد هجرت فتاة أخرى أبويها لتلحق بيولوجيوس، فأحضرت هى وأستاذها أمام القاضى، وكانت تهمة يولوجيوس: إغواء الفتاة على الارتداد، فعوقب بالجلد بالسياط، ولم يكن هذا القسيس الضعيف الناحل ممن يتحملون السياط... إنه كان شديد الخشوع لله متقبلا فى سبيله كل تضحية، راغبًا أن يلقى فى نصرة دينه كل ضروب العذاب، ولكنه لم يحتمل أن يسوطه المسلمون، فصاح أمام القاضى: عجل بسيفك أيها القاضى، وابعث بروحى إلى ربها، وإياك أن تظن أن ألقى بجسدى إلى سياطك. ثم أخذ يقذف الإسلام بسيل من الشتائم والسباب.

وهنا تحرج القاضى وأبى أن يحمل تبعة قتل زعيم مثله، فأمر بعرضه على مجلس الدولة، وفى هذا المجلس أخذ بعض الأعضاء

يحاجــه ويهدئ من ثورتــه، ويعجب كيف أن رجــلاً عاقلًا مثقفًا مثله يقذف برأســه طواعية، بين أنياب الموت، ثم قال له: لو فعل هــذا رجل أبله أو مجنون مــا أثار عجبى، ولكن صــدوره من مثل يولوجيوس هو العجب كله، ثم همس فى أذنه قائلًا:

«أنصــت إلى ... إنى أرجوك أن تخضع مرة للضرورة، وأن ترجع عما قلته أمام القاضى، قلها كلمة واحدة، تجد نفسك حرًّا طليقًا».

ولكن هــذا النصح جاء بعــد أوانه، نعم إن يولوجيــوس كان يؤثر تخريج الشــهداء وإثارتهم على أن يخط لهم المثال بنفسه، ولكنه رأى أنه لا يســتطيع الآن التقهقــر موفور الكرامة، وأنــه يجب أن يصابر ويثابر إلى النهاية، وحينما أبى أن يتراجع، حكم بقتله، فمات شجاعًا مخلصًا، فى الحادى والعشرين من مارس سنة ٨٥٩ م / ٢٤٤ هـ وحين فقد المســيحيون زعيمهم، سرى اليأس إلى قلوبهم، ولم نعد نسمع لهم ضجيجًا مرة أخرى.